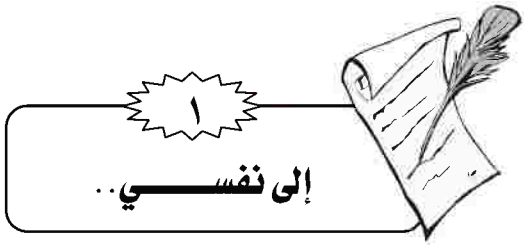

قد يبدو غريبا منذ أول وهلة أن تجد مَن يوجّه رسالة إلى نفسه، صحيح أنه قد يوجّهها لها في السرّ، أمّا أن يسطرها حروفا وكلمات فهذا ربما كان هو العجيب في الأمر في هذا الزمان. وقد يتعجب القاريء حينما يقرأ العنوان، فقد تعودنا أن ندعو الآخرين وننصحهم، وغفل بعضنا بل كثير منا عن النظر لنفسه ومعرفة ما فيها من محاسن ليزيدها حسنا، أو عيوب ومساويء ليقلع عنها ويتوب منها، حتى تمكنت منا بعض الأمراض ونحن لا ندري، دعاة ومدعوّين، لذا فقد أخذت هذه الرسالة من قوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤] . وأحببت ألا أنسى نفسي، وألا ينسى قاريء هذه الرسائل أيضا نفسه.

وحين تحدثت إلى نفسي وغُرْتُ في أعماقها وغُصْتُ في لججها لأراها عن قرب بمنظار قوي من عدل المراقبة، وبمكبرات دقيقة من صدق المحاسبة إذا بي أفاجأ بأن فيها كثيرا من فيروسات الذنوب والمعاصي المهلكة، بعضها قد استفحل أمرها حتى تمكنت من احتلال أجزاء هامة وحيوية من أرضها! وبعضها خامد و كامن لم يقوَ بعد على الظهور بفعل عوامل المناعة والحصانة التي يثمرها الإيمان بالله ويقويها فعل الطاعات.

وتعجبت مما يظهر على ساحة النفس من أعراض مَرَضية تغزوها توشك أن تتطور إلى ما لا تحمد عقباه، فضلا عما أصابها من أمراض شبه مزمنة قد اعتادت نفوسنا التعايش معها، وتأقلمت على وجودها خاصة مع تغير الأعراف والأزمان وتبدل المفاهيم والأفهام، فتحسرت أسفا على نفسي وتأثرت رحمة وشفقة بها، وقررت أن أغيّرها وأبذل لها من طرق العلاج ما يناسبها لتقلع عن غيّها قبل أن تقلع رحلة طيرانها من محطة الدنيا إلى غير رجعة. لذا فقد ركزت على بعض سلبيات النفس الأمارة بالسوء وذكرت بقسوة

وشدة بعض مساوئها لتَصلح وتُصلِح، وانطلقت من مقتضى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].. إذ حاولتُ أن أذكّر نفسي لأفعل ما أقول، وأردتُ أن أبدأ بها وأن يبدأ كل قارىء كذلك بخاصة نفسه عله يصبح قدوة أو إماما يُقتدى به في فعل الخير أو دالا عليه إذا ما تمسك به، عساه أن يصلح من شأنه ويرفع من ذاته قبل أن يتجه لغيره وهذا هو العقل بعينه وإنه -وربّي- أبلغ من القول وأقوى. وقديما قال الشاعر: إبدأ بنفسك فانهها عن غيها:فإذا انتهت عنه فأنت حكيم.

ألا يا نفس.. أسلمي لربك تسلمي..

فيا نفس.. يا من كرمك الله تعالى ومَنّ عليك بنعمة الحياة والإيجاد والهداية، وخلق من أجلك الأرض وسخرها بما فيها لك، وبعث إليك الرسل مبشرين ومنذرين، وخصك بنزول الكتب هداية ومنهاجا لحياتك، أمَا تحدثتِ حديث النجوى منك وإليك وتفكرتِ في سرّ وخلوة فيمَ خُلِقتِ، ولمَ كنتِ سرّا عظيما من أسرار الحياة فلا يطّلع عليه ولا يعلم نجواه إلا خالقه ومولاه؟ لقد خلقك الله تعالى لهدف عظيم وأمر جلل، أشفقت منه الجبال والأرض والسموات، وقمت أنت بحمل أمانته والقيام بواجبه إلى أن يتوفاك الله.

ألا يا نفس.. أسلِمي تسلَمي، وآمِني تأمَني، وأخلِصي تتخلّصي، وتوكلي على الله يكفيك، وتقربي إليه بالطاعات يُدْنيك، وأحبّي للناس ما تحبينه من خير يقربوك، وازهدي فيما عندهم يحبوك.. ألا تعلمين يا نفس أن عدوك الرجيم بعد أن شطن وبعد عن طريق الهداية قد انتصب واقفا لك بالمرصاد، وأنه قد أقسم بعزة رب الأرض والسموات ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٢].. وأصرّ على الإغواء، وأعلنها حربا دائمة لا راحة فيها حين قال: ﴿ثم لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيدِيهِم وَمِن خَلفِهِم وَعَن أَيمَانِهِم وَعَن شَمَائِلِهِم وَلا تجِدُ أَكثَرَهُم شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] . فهو مُصِرّ على أن يقعد لك كل مرصد فيوصد في وجهك الأبواب.. أبواب الإنابة والتوبة، ليصدك عن العمل الصالح والأوبة، فيجعلك لفعل الخير تسوّفين، وللطاعات تؤخرين، ولطول الأمل تؤملين، وعلى المال تحرصين، ومن الدنيا لا تشبعين، وفي بحر حبها ولهوها تغرقين؟!

ألا يا نفس ما لي أراك للأوقات تضيعين، وللمعاصي تزينين، وعن الذنوب لا تتورّعين، وعن الموت تغفلين، وعن الجنة تبعدين، ومن النار لا تهربين؟! ما لي أراك للجيران تهجرين، وللأرحام تقطعين، وللإخوان تحسدين، وللوالدين تعقين، وللزوج تظلمين، وللأبناء تهملين؟! وما لك يا نفس للحرمات تنتهكين، وفي الأرض لا تصلحين؟!.

ألا يا نفس ويحك ساعديني:بسعي منك في ظلم الليالي.

لعلك في القيامة أن تفوزي:بطيب العيش في تلك العلالي.

النفس في قفص الاتهام!

أنتِ متهمة بلا شك يا نفس، فما تقولين وأنت الآن ماثلة أمامي في قفص الاتهام بعد أن نهانا رسول الله ﷺ عن الجري وراء هواك، وحذرنا من طاعتك في كل ما تأمرين أو منْحِك كل ما تشتهين، ففي الخبر عنه ﷺ أنه قال: «**ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية**» قالوا: يا رسول الله! هذا شر صاحب في الأرض. قال: «**فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم**». فمن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهاتها في سائر أوقاته كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

أمَا إنك لو أجبت يا نفس لقلتِ ما يقول كل مقصر ومذنب ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفسِي إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَة بِالسّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبّي إِن رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٣]. لكن القول وحده يا نفس لا يكفي، إذ لا بد من اقترانه بالفعل وتقويته بالعمل، أما سمعتِ قوله تعالى: ﴿**قد أَفلحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. فاطلبي منه الهداية واستعيني بقوته على ضعفك وبقدرته على عجزك، وبمعيته على كسلك، فقد كان النبي ﷺ يدعو وهو ساجد ويقول: «**رب أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**» [الإمام أحمد].

يا نفس كوني مطمئنة..

إن حرب الإنسان مع نفسه قائمة دائمة لا تضع أوزارها ما دام فيه عرق ينبض بالحياة، إذ يترصد لها أعداؤها زرافات ووحدانا، من دنيا فاتنة خلابة تأخذ بالألباب، وهوى يهوي بها في الشهوات المحرمة والشبهات المضللة، وشيطان من إنس أو جان يوسوس لها ويهمس في أذنها ويزين أمامها الكفر والمعاصي والمنكرات، ويرسل لها بريده باستمرار ليكون على صلة دائمة بها، وهذه النفس البشرية المجاهدة في جهاد دائم وشاق ومرير مع أولئك الأعداء العنيدين الذين لا يغمض لهم جفن حتى يظفروا بها لتكون أسيرة لهم تنقاد لأوامرهم، فإذا ما بثوا جنود الغواية في زواياها صارت النفوس أنواعا مختلفة، فهذا نوع منها قد انهزم تماما وأحكم الأعداء قبضتهم على رقبته وضيقوا الخناق عليه فلا يعرف صاحبها لمَ خلق وفيمَ يعمل وإلى أين يصير، همّه دنيا الغرور والفناء، قد نسي مقره ومستقره، فلسان حاله يقول لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء، «أولئك هم شر البرية». وكما قال بعض الحكماء: «من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها، محصورا في سجن هواها، مقهورا مغلولا زمامه في يدها، تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد».

وقسم آخر في جهاد دائم معها، فهو يلومها وتلومه حتى صارت نفسا لوامة ديدنها اللوم والعتاب، تلوم وتندم على ما فات، وتلوم على الشر لمَ فعلته، وعلى الخير لمَ لا تستكثر منه، وهذه هي نفس المؤمن حيث لا تراه إلا مجاهدا محاسبا يقول لها ما أردت بكذا؟ ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه، لا يهدأ حتى تيأس هي منه وتنهزم أمامه فتنقاد له، هذا وهو في الدنيا، أما في الآخرة فليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانا، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

وقسم ثالث من النفوس هو أشرفها وأعلاها، وأسماها وأغلاها، وأنفسها وأتقاها، قد رضي الله تعالى عنها فقال لها: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧ – ٢٩]. وهذه النفس هي المؤمنة المخلصة الساكنة الثابتة الدائرة مع

الحق، الموقنة التي أيقنت أن الله ربها فأخبتت لذلك، وهي الراضية بقضائه، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وهي المطمئنة بالإيمان به، المصدقة بالبعث المطمئنة بثواب الله، قد عملت على يقين بما وعدها في كتابه، وسكنت إليه سبحانه واطمأنت بذكره وأنابت واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه، اطمأن صاحبها من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العُجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فأنعِم بها من نفس!.

حاجة النفس إلى الجهاد المستمر لها..

قال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك. وقال سفيان الثوري: ما عالجتُ شيئا أشد عليّ من نفسي مرة لي ومرة عليّ. وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات. وقال سهل: ترك الهوى مفتاح الجنة، لقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾.

إليكِ يا نفسي..

أحبُّك يا نفسي، وأخشى عليك من نفسي! فاحذري أن تُصابي بالأمراض الخطيرة القاتلة المميتة، من كفر وشرك ورياء، وعجب وغرور وكبرياء. ابتعدي عن غل وحسد وبغضاء، وغضب وحقد وشحناء. وامتنعي فورا عن تناول المهلكات من الحرص والطمع، واليأس والهلع، والقنوط والجزع.. ثم إياك والغفلة والتسويف وطول الأمل، وأقلعي عن الغرور بالجاه والتفاخر بالأنساب ولا تتركي العمل. وابدئي من اللحظة وأسرعي بأخذ جرعات كافية من الأمصال الواقية من الإصابة بكافة أمراض النفوس، وتابعي بتناول جرعات الدواء لما جدّ أو ظهر عليها من مرض، وستجدين كل ذلك بلا شك في اتباع كتاب الله تعالى القائل سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. والدعوة لذلك عامة.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد جَاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧].

* * *

٢
إلى مَن جعله الله خليفة في الأرض..

هذه رسالة أوجهها إليه.. إلى مَن ذكره الله تعالى في كتابه الكريم ما يربو على الخمسين مرة.. هي إلى ذلك المخلوق المكرّم الذي رعاه سبحانه وتعالى منذ كان نطفة من ماء مهين لا حول لها ولا قوة، ثم كان علقة ثم أصبح مضغة.. إلى من كسى الله عظامه لحما ثم أنشأه بقدرته خلقا آخر، ووهبه الحياة ورزقه برحمته من حيث لا يحتسب.

إنه أنا وأنت أيها الإنسان وكُل مَن خلقه الله تعالى فجعله بشرا سويا، وسخر له الكون بما فيه وجعله مع ضعفه قويا أميرا على مخلوقاته المسخرة لخدمته وراحته في هذه الحياة الدنيا.

أمَا فكرتَ يوما أيها الإنسان لِمَ خُلِقتَ وفيمَ خلِقت ولماذا خلِقت؟ وأنت بالأمس القريب منذ عدة سنوات هي عمرك لم تكن شيئا مذكورا. كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

خلقك الله تعالى في أحسن صورة وامتن عليك بذلك فقال: ﴿**لَقد خَلقنَا الإِنسَانَ فِي أَحسَنِ تقوِيمٍ**﴾ [التين: ٤]. ذاك الإنسان هو آدم عليه السلام وذريته ومنها أنا وأنت، وقد خلق الله الإنسان في أحسن ما يكون في اعتداله واستواء شبابه، لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه، وخلقه هو مستويا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها. خلقه مزيّنا بالعقل، مؤدّيا للأمر، مهديّا بالتمييز، مديد القامة يتناول مأكوله بيده. خلقه حيّا عالما، قادرا مريدا متكلما، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما، فهذا يدلك على أنك أحسنُ خلق الله باطنا وظاهرا، جمال هيئة، وبديع تركيب، الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه، فليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، ولذلك قالت الفلاسفة إنه هو العالم الأصغر إذ كل ما في

المخلوقات جمع فيه.

أيها الإنسان.. انظر حولك.. وتفكر..

أمَا تفكرتَ يوما أيها الإنسان وأنت المخلوق المكرّم المصطفى على سائر المخلوقات لِمَ كل هذا التكريم لك.. أما نظرتَ ساعة في هذا الكون الواسع من حولك وتساءلتَ عن سرّ تهيئته وتسخيره لك.. أمَا رأت عيناك من الآيات الباهرات ما يدعوك للإيمان بأن لك ولها إلها عظيما، وموجدا قادرا، وخالقا حكيما.. أمَا تجلس كل يوم على مائدته العامرة الممدودة لك ليل نهار تأكل من رزقه وتتمتع بنعمه وتسكن في أرضه.. أما قلّبتَ ناظريْك في نفسك لتبصر تلك الحقيقة فتعرف الغاية ويصير لك في حياتك هدف تسعى إليه وغاية تهدف إلى تحقيقها.

إن نداءات القرآن تتوالى إليك تترا آية بعد آية ونداء إثر نداء لتعرف هذه الغاية التي حللتَ بسببها على الدنيا ضيفا لأجل مسمى، فأصْغِ سمعك لها وأنصِت لمدلولها..

فأنت أيها الإنسان خُلِقتَ للابتلاء..

خلقك الله ليكلفك بالعمل بعد الخلق لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، وليختبرك بالخير والشر. خلقك لتحمل الأمانة، أمانة الدين فتكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي. خلقك ليختبر شكرك في السراء وصبرك في الضراء. ومنحك وسائل المساعدة مِن سمع تسمع به الهدى وبصر تبصره به وعقل ينظر ويتفكر، وقلب يعي ويؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وأنت أيها الإنسان لَمْ تُخلق سُدى..

ولم تخلق هكذا عبثا، تعالى الله سبحانه عن ذلك علوا كبيرا، فلم تُترك في هذه الدنيا مهملا لا تُؤمر ولا تُنهَى، وكذلك لن تترك في قبرك بعد موتك منسيا، بل تُبعث وتحاسَب، لذا فأنت مأمور منهيّ في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. يقول لك خالقك العظيم: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. ويبين لك الغاية والحكمة من خلقك

وتسخير الكون لك فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأنت أيها الإنسان مسؤول..

فما الذي غرك يا ابن آدم بربك الكريم العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟ إن الله تعالى يقول لك يوم القيامة «ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين» [الطبراني]. ألم يطرق سمعك ذلك النداء الخالد فتؤمن وتتوب وترعوي عما أنت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم﴾[٦ الانفطار]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدحًا فملاقيه﴾ [٦ - الانشقاق]. فأنت في دنياك تعمل عملا تلقى الله به خيرا كان أو شرا. وإن كدحك هذا لضعيف، فإن استطعتَ أن يكون كدحك في طاعة الله فافعل، «وعش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به»[(١)].

لذلك فإن عليك أيها الإنسان أن تعمل لغدك المقبل يقينا.. قال تعالى: ﴿وَلتنظُر نَفسٌ مَا قَدَّمَت لِغدٍ وَاتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. فحاسب نفسك يا مسكين قبل أن تحاسَب، وانظر ماذا ادخرتَ لها من الأعمال الصالحة ليوم معادك وعَرضِك على ربك العظيم، فإنك معتقل بعملك يوم القيامة و﴿كُل نَفسٍ بِمَا كَسَبَت رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وأعداؤك أيها الإنسان يتربصون بك..

وإن أعداءك ثلاثة وكفى بهم عدوا، إنهم دنياك وشيطانك ونفسك، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات. واظفر بنفسك فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، وجهادها هو الجهاد الأكمل ويقع بمنعها عن المعاصي، ومنعها من الشبهات، ومنعها من الإكثار من الشهوات المباحة، ولذلك قيل إن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم.

---

(١) الراوي: جابر بن عبدالله وسهل بن سعد، المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: ٨٩ - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وأقوى المعين على جهادك هذا هو جهاد الشيطان بدفع ما يلقى فيها من الدعوة إلى الكفر والشك والنفاق، ورفض ما يدعوها إليه من الشبهة وتحسين المحرمات. وتمام ذلك من المجاهدة أن تكون متيقظا لنفسك في جميع أحوالك، فإنه متى غفلتَ استهواك شيطانك ونفسك إلى الوقوع في المنهيات، وأصل مجاهدتها فطمها عن المألوفات وحملها على غير هواها، والنجاة بها إلى شاطيء الأمان حيث برد الإيمان وصدق اليقين وتمام الإخلاص، فاحذر نفسك أيها الإنسان ولا تكن أول المضيعين لها المفرطين في حقها.

أيها الإنسان.. هيا إلى الإيمان.. وعُد إلى مَعين الفطرة الصافي..

امتثل أمر ربك وأسلِم له وعُد إلى أصل فطرتك فقد وُلدتَ مسلما، و«إن الله عز وجل خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين» [الطبراني]، و«كل مولود يولد على الفطرة» [البخاري].. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾، وآمن بالله واليوم الآخر واعبد ربك الذي خلقك وتوكل عليه، واعمل ليوم البعث والنشور، واعلم أن الإسلام هو الفطرة ﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطرَت الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا لا تبدِيلَ لِخَلقِ الله ذلِكَ الدِّينُ القيِّمُ وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فهو الدين القيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ الْقِيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]. لذا فاعبد ربك وحده لا شريك له، واحذر أن تجعل له شريكا، وهل يقبل من عاقل أن يعبد غير خالقه وموجده، أو يكفر فيجحد ألوهيته، وهل له أن يطيع غير مالكه، أو يشكر غير رازقه، وهل يحق له أن ينسى المحسن له دوما، الواهب له نعما لا تعد ولا تحصى؟! إن هذا لا يكون بحال من إنسان ذي عقل وله إرادة وحرية واختيار، وعنده من وسائل الهدى والإبصار، فمَن كان هذا شأنه وحاله فهو إلى المعرفة أقرب وإلى الإيمان أرجَى. فهلمّ أيها الإنسان وارفع راية التسليم والإذعان، وامتثل الأمر بلا كبر أو جدال.. قال تعالى: ﴿وَاعبُدُوا اللهَ وَلا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا﴾ [النساء: ٣٦] وهذا حق الله عليك وعلى كل إنسان.

لا تكن هكذا..

- لا تكن ظلوما لنفسك جهولا بربك، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضنَا الأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَاوَاتِ وَالأَرض وَالجِبَالِ فَأَبَينَ أَن يَحمِلنَهَا وَأَشفَقنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. والأمانة تعم جميع وظائف الدين وهي الفرائض التي ائتمنك الله عليها.

١- لا تتجاوز قدرك كعبد ضعيف مملوك وتستكبر على ربك أن أغناك، قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧].

٢- احذر أن تكون في عداد الهالكين الذين أقسم الله تعالى على خسارتهم فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

٣- لا تكن جاهلا بحكمة وجودك في الدنيا فما شرفك الله على ملائكته إلا بالعلم، وهو سبحانه ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لم يَعلَم﴾ [العلق: ٥].

٤- لا تكن الدنيا أكبر همك فهي دار عناء وكبد ومشقة، قال تعالى ﴿لَقد خلَقنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] فاعمل لراحتك بعد مفارقة دنيا النصب.

٥- لا تكن ذلك الإنسان الظلوم لنفسه الكفور بربه الجاحد نعمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَإِن تعُدُّوا نِعمَةَ اللهِ لا تُحصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُوم كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

٦- لا تكن مغرورا أن أنعم الله تعالى عليك وأنت مقيم على معصيته واعلم أن ذلك ابتلاء لك وامتحان. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابتلاهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقولُ رَبِّي أَكرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

٧- لا تكن عبدا لمصلحتك فتكون كما قال الله: ﴿وَإِذا أَنعَمنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فذو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

٨- لا تكن من المطففين فتنسب الفضل لغير أهله، قال عز وجل ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثمَّ إِذَا خَوَّلنَاهُ نِعمَة مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ بَل هِيَ فِتنة وَلَكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

- لا تنسَ أن الرقابة عليك محكمة ودائمة بنص القرآن الكريم: ﴿وَلَقد خَلَقنَا

﴿الإِنسَانَ وَنَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

- لا تكن غافلا عما ينفعك فتتذكر حين لا تنفعك الذكرى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣] بل اتعظ وتب قبل الممات.

* * *

٣
إلى أحق الناس بحسن صحبتي..

إن قلمي يكاد ينكسر خجلا وتواضعا أمامها، ولساني يوشك أن يتوقف فلا يكاد يُبِين تجاه فضلها، وأنَّى لأصابعي أن تتجرأ وتمسك بالقلم لتخط حروفا قاصرة لا تفي ببعض حقها وهي ذات المقام العالي إذ نوّه الله تعالى بذكرها، وصاحبة المنزلة الرفيعة حيث أمر الرسول الرحيم ﷺ ببرّها. إنها النغمة المحببة التي لا تملّها النفوس الطيبة، إذ يترنّم بها الصغير والكبير مرددا إياها كلما غدا أو راح، لا يهدأ له بال حتى تتكحل عيناه بطلعتها البهية التي لا تقل حلاوة وأهمية عن طعامه وشرابه، فلا يغمض له جفن إلا على هدهدتها، ولا يستقر له وجدان إلا في أحضانها.. هي عطر حياتنا الحقيقي وأريجها الفواح، ونبع العطاء ومعين المودة، وبحر الحب وثوب العطف، وقلب الحنان وسبب الرحمة.

إنها نسمة في الظهيرة.. دفء ساعة قشعريرة.. حُبّ فوق العشيرة.

حضنها يبدّد برد الشتاء.. قربها بلسم ودواء.. صحبتها ذكر وصفاء..

في صباح نراها أو مساء.. هي دوْما لنا ريّ وماء..

نجمة هيَ في المساء.. قمرٌ هيَ في السماء.. شمسٌ هيَ وهواء!!

لا تتعجب.. فإنها أمّي وأمّك -أيها الإنسان- التي حبانا الله بها، وأودعنا بطنها، وأسكننا قلبها، وجعلها لنا وعاء وسترا وغطاء، فاللهم اجزها عنا خير الجزاء.

إليك يا أمّ..

يا مَن أكرمك الله في كتابه وفرض طاعتك في المعروف على أولادك وجعلها من طاعته، أمَا فكرتِ يوما لِمَ كل هذه الكرامة، وماذا عليك تجاهها، وما المطلوب منك

لتستحقي نيلها.. لا شك أن منزلتك عند الله تعالى على قدر مسئوليتك، ومكانتك بحجم واجبك، والأمانة الملقاة على عاتقك كبيرة وعظيمة، والحمل ثقيل يحتاج منك للتشمير والسعي بخطى ثابتة راسخة لتقومي بدورك خير القيام وأحسنه، فأنت المدرسة الأولى والمُعلمة الأساسية، وأنت أول محضن وأول حِجر ينشأ فيه الطفل بعد أن اختلط دمه بدمك وجاور جسده جسدك وامتزجت روحه بروحك حتى خرج وانفصل عنك إلى عالم الحياة الدنيا وإن لم تفترقا معنويا وقلبيا. لذا فأنت ذات تأثير قوي على هذا الوليد منذ كان في بطنك يستمد غذاءه من غذائك، ويصح بدنه بصحتك ويمرض بمرضك، وأنت تنقلين له بقدرة الله عز وجل صفاتك الإيجابية والسلبية منها على السواء، فهو جزء منك وقطعة تنبت في أرضك ثم تنفصل عنك بمشيئة الله بمعجزة الولادة.

همسة في أذن كل أم..

أيتها الأم الحنون.. يا زهرة قد أنبتت وبمثلها تُبنَى الأمم.. إن مهمتك في الحياة كبيرة وشاقة، إنها تشبه إلى حدّ ما مهمة الرسل والأنبياء، فلقد جعلك الله تعالى أمينة على أولادك جميعا من بنين وبنات، وأنت مع ذلك مربية ومعلمة ومبلغة وناصحة لهم، ولا تتعجبي من ذلك. ألستِ أنت مَن تغرسين في نفوسهم العقيدة السليمة منذ الصغر وترضعينهم حب الله ورسوله مع اللبن؟ أليست سنوات أعمارهم الأولى تمر عليهم وهم أمانة بين يديك؟ أليست عقولهم النقية وقلوبهم النظيفة تتفتح عليك؟ ثم مع كل ذلك تنظر أعينهم الصافية إليك وأنت تتقلبين في أحوال شتى فيرصدون حركاتك ويسجلون أخلاقك شئت ذلك أم أبيت، فأنت لهم قدوة ومثل وقائد ومرشد وأمّ ومدرسة، لذا فإن دورك عظيم وأنت راعية عليهم ومسئولة عنهم أمام الله تعالى. لكن بعض الأمهات لا زلن لا يعين دورهن تجاه فلذات الأكباد، ولم تتسع نفوسهن لأن يرتدين ثوب الأمومة السابغ أو يُزينَّ صدورهن بقلادتها الثمينة، والنتيجة واضحة ألا وهي اتساع الهوّة بين الأم وأولادها، وفقدان الثقة في نفوسهم واهتزازها، وتذبذب في العاطفة يؤدي إلى محاولة إشباعها وتهدئتها بطريق آخر لا نحبه ولا نؤيده. نجد ذلك في هذه الهمسة التي أنقلها لك على لسان ابنة زهرة في عمر الزهور همست لك بها على وجل واستحياء.. إنها لك ولكل أم..

لقد كبرت يا أمي وصرت عروسا..

أمّاه يا حبيبتي، يا ذات الحضن الدافيء، ويا صاحبة القلب الحاني، ومليكة الوجه الطيب، أشعر أن حبك يملأ قلبي ويملك جوارحي ويغزو أعماقي، فيلهج به لساني لك دعاء في صلاتي، فكم تعبتِ في تربيتي، وسهرتِ على راحتي، وشقيتِ من أجلي حتى كبرتُ وصرتُ عروسا جميلة يتطلع إليها الخُطّاب. إن أفضالك عليّ أمّاه كثيرة لا تقدّر وحقك عليّ عظيم، لكني يا حبيبتي أريد أن أسِرّ لك أمرا يؤرقني وألِفت نظرك إليه.. وسامحيني أمّاه. فلقد كبرت حقا يا أمي كما تقولين، أسمع كلماتك التي ترددينها دوما أمام الصديقات أنني ابنتك الكبيرة، وأشعر أنك تفخرين بي أمامهن وأرى ذلك في نظراتك الحانية لي وفرحتك الكبيرة بي كلما زاد طولي ونما جسمي، لكني كلما كبرتُ يا أمي كبرَتْ حاجتي إليك وإلى صحبتك، وازداد شوقي للجلوس بين أحضانك الدافئة التي تذيب جليد الشتاء وتدفيء لياليه القارصة، فكم أنا بحاجة إليك يا أماه فإنني لا ولم أستغن عنك ببلوغي فترة الشباب، بل أشعر بضرورة القرب منك، وأحتاجك لفك طلاسم الحياة الجديدة التي قد أخطيء في فهمها وأجهل الكثير منها بعد أن تخطيت مرحلة الطفولة، وكم أتمنى أن أجلس بين يديك لآخذ عنك عِلْمَ الحياة، لكني يا حبيبتي كلما اقتربت أنا أراك تبعدين وتبعدين، ولا شك أن بُعدك هذا غير مقصود، يشغلك عني أشياء كثيرة، وينزعك مني اهتمامات عديدة، عملك وصديقاتك، مطبخك وضيوفك، هواياتك وهواتفك، أهلك وأخواتك، برامجك ومسلسلاتك، ماكياجك وأزياؤك، مطالب أبي وإخوتي الصغار، وأنا حَيْرَى وحيدة، أشعر في قرارة نفسي أنني يجب أن أكون عندك أهم من كل ما يشغلك في هذه المرحلة الحرجة من عمري، فأنا كنزك يا أمي، وأنا امتداد لك، صحيح أنك تؤمّنين لي كل شيءأحتاج إليه لكني لا أريد مَن يخدمني بل أريد مَن يسمعني، ولست بحاجة لخزانة مملوءة بالأزياء والملابس بل أحتاج قلبا صدوقا كقلبك أخزن فيه أسراري، ولسانا نصوحا كلسانك أعرف منه قرارى. فلِمَ تغربين عن عيني أكثر النهار وتنامين معظم الليل وأنت بي لا تشعرين بحجة أنني قد كبرت، ألا تعلمين أنني الآن بحاجة إليك عن ذي قبل، أريد أن أنهل من خبرتك وتجاربك في الحياة، أريد أن

أستشيرك فيما يمر بي من مواقف وأحداث، أريد أن أتكىء عليك وأستند على صدرك الحاني عند حلول أي عقبات.

أي الأمور يرضيك يا أماه؟

أماه.. إن تحديات العصر من حولي كثيرة، والشبهات فيه واردة والشهوات بي محيطة، وأنا الآن بين عدة خيارات إما أن أحبس مكنون صدري عن الأسماع وأخفيه عن الأنظار وهذا بالنسبة لي صعب محال، وإما أن أتخذ صديقة أفرغ لها ما عندي لكنها مثلي لا خبرة لها في الحياة فربما أضرتني بنصحها وهي لا تدري، أو أقتل وقتي وأهرب من نفسي على شاشات الإنترنت والجوال [الموبايل] لعلي أجد ما أريد، فانظري يا أماه أي الأمور منها يرضيك؟

إنني أسعد كثيرا يا أمي عندما تذكّرينني بالمذاكرة وتأمرينني بها، لكني أمَلّ من كثرة إلحاحك عليّ في ذلك الأمر، فأنت لا تريدين رؤيتي بغير الكتاب في يدي، وأتمنى أن تسأليني ماذا تعلمت وماذا فهمت، وما الذي يصعب عليك، فبالأمس القريب شرحت لنا المعلمة درسا في الطهارة وفقه النساء وكم كنت أتمنى أن أسمعه منك قبلها حتى أسألك دون خجل عما يلتبس عليّ فيه وأعي ما يقال، بدلا من تلقيه من هنا وهناك، كما تفعل بعض الصديقات عن طريق الانترنت مثلا أو شاشات الفضائيات!

أمي وحبيبتي.. ينتابني شعور بالأسى حين لا تفهمينني عندما أشارك في الحديث معك، أوتصيحين في وجهي أمام إخوتي وزميلاتي بل وصديقاتك أحيانا كأنني لا زلت طفلة صغيرة رغم أنك تعترفين أني قد كبرت وصرت فتاة ناضجة، وأحزن أكثر حينما تسفهين رأيي وتسخرين منه بحجة أنني لا أفهم، ويسوؤني شكواك مني لجارتنا فلانة على مسمع ومرأى مني فتهتز ثقتي بنفسي وأنكمش خجلا من تلك الجارة وبناتها.

أمّاه.. أنت قدوتي ومَثلي..

وكما يقولون أن البنت تحاكي أمها في تصرفاتها، وتتخلق بأخلاقها، وكم أسعد حين أرى الحب يلقي بظلاله الوارفة على بيتنا فيجعل منه روضة تسر الناظرين، لكني مع ذلك أحزن كثيرا حين أسمع أنا وإخوتي عتابك لأبي وأطلع على بعض ما يشوب علاقتكما

وأحيانا أشعر كأنكما معا في معركة، ولا أدري لماذا يحدث هذا منكما، وماذا لو تنازل أحدكما أو كلاكما عن التمسك برأيه والتماس العذر للآخر، ولا أدري أيضا لماذا تحرصان على أن أكون أنا وإخوتي أطرافا في النزاع الحاصل بينكما، كل ذلك يحصل بالفعل حين تتطور كلمات العتاب وتزداد حدة الخلاف بينكما وتقفز الكلمات الساخنة من فوق أسوار غرفة النوم الخاصة بكما فتحرق في بيتنا السعادة التي ننعم بها وتجفف ينابيع المودة بينكما، وتشوه أمامي صورة القدوة التي أتيه بها فخرا على كل قريناتي، وعذرا أماه وسامحيني لصراحتي وجرأتي على هذا الكلام.

أيتها الأم المربية..

ونحن نقول لهذه الأم ومثيلاتها إن التغيير للأحسن بيدك إن شاء الله، واعلمي أن المرأة حين عرفت دورها وأيقنت في قرارة نفسها أنه لا يقل أهمية عن دور الرجل بل قد يفضله، خرج من تحت يديها قمم شامخة، فهيا أيتها الأم أعيدي الأمجاد لأمتك الولّادة، فلا زال الأمل يداعب أجفاننا في عودة كل أمّ فيها إلى سابق عهدها لتحمل أمانتها بصدق وتؤديها بإخلاص.. فهلا كنت واحدة من هؤلاء المخلصات؟؟

وصفة تربوية لعلاج كثير من الأمراض الأسَرية..

- أحسني اختيار أسماء بنيك وبناتك، ودعي عنك الأسماء المستوردة التي غزت مجتمعاتنا وأسرنا مع موجة الغزو العارمة، وحاولي بشتى الطرق أن ترضعي أولادك الرضاعة الطبيعية التي هيأها الله تعالى للولد منذ مولده، واهتمي بنظافتهم وبصحتهم، ولا تفضلي الذكر على الأنثى، وضميهم جميعا إلى صدرك وأشبعيهم حنانا وعطفا لينشؤوا أسوياء في عواطفهم، وعلميهم كلمة التوحيد ولغة القرآن وكلام الله تعالى، واغرسي في قلوبهم العقيدة الصحيحة والقناعة والزهد والرضا منذ الصغر، وأحسني أدبهم وتربيتهم وكوني لهم مثالا في حسن الخلق، وعلميهم الآداب العامة والاجتماعية والأدعية والأذكار، وحببي إليهم العلم وشجعيهم على التفوق في طلبه، واجعلي من نفسك صديقة حميمة لهم وشاركيهم هواياتهم إيناسا لهم، واستمعي لآرائهم وأشركيهم في بعض مسئوليات وقرارات الأسرة.

- لا تعودي ابنتك في الصغر على ارتداء الملابس العارية واغرسي في نفسها خلق الحياء، وعوديها بالتدريج ارتداء الحجاب وبيني لها حكمه وكوني لها قدوة، وهيئيها لوقت البلوغ بفقه الحيض والطهارة، وأعديها لأن تكون زوجة وأمّا بفقه الزواج والحياة الزوجية، وجهزيها ليوم عرسها بنصائحك الذهبية التي ترضي الله، واحذري العرى والسفور والمجون والاختلاط في هذا اليوم السعيد، ولا تعرضيها لخوض تجربة الزواج دون إعداد مسبق منك، وكوني أمامها قدوة في ذلك.

وأخيرا عزيزتي الأم لا تجعلي أولادك في ذيل اهتماماتك، أو في آخر أولوياتك، فمكانهم يجب أن يكون قبل عملك وصديقاتك وأشغالك ومناسباتك، ثم لا تنسي الدعاء الخالص لهم بالهداية والتوفيق، وألحِّي على الله ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

***